ابن طوق وكتابه (التعليق)

الشيخ د ٠ جعفر المهاجر

لست أذكر الآن أين قرأت لمؤرخ لا بد أن يكون عظيماً ، كلاماً قال فيه ما مؤدّاه ، إن امرءاً يكتب تاريخ قريته ، لهو أكثر نفعاً من مؤرخ يكتب لنا تاريخ العالم ٠ فكيف بمن يكتب تاريخاً حياً لأم مدائن الدنيا " دمشق " ٠

إن المنظور الذي انطلق منه صاحب هذا الكلام هو ، إن فن التأريخ هو عمليّة عموديّة ، وظيفتها أن تنفذ إلى أعماق النشاط البشري بكافة مظاهره وأشكاله ، فتصفه وتنظّمه في سياق ٠ ثم يأتي عالِم التاريخ من بعده فيُركّبه ، كيما تأتي الكتابة على صورة الحقيقة ٠

في مقابل هذا المنظور الإنساني منظور آخر يرى إلى التأريخ بوصفه عمليّة أفقيّة ، ذلك هو التاريخ السُلطوي ٠ وهذا النمط من التاريخ لا يهتم على الإطلاق بأي شكل من أشكال نشاط الناس ، إلا حيث يصادف أن يتقاطع هذا مع شأن من شؤون أهل السلطة ٠ إن همّه محصور في تقديم السلطة بوصفها مالكة حصراً للتاريخ ، وبالصورة التي تروق لها وترضيها ٠

مذكرات شهاب الدين أحمد بن محمد بن طوق الشافعي (٨٣٤ ـ ٩١٥ هـ / ١٤٣٠ ـ ١٥٠٩ م) هي أنموذج ساطع ونقي للتأريخ ذي النزعة الإنسانيّة ، بل لعلّه الأنموذج الوحيد فيما خلّفه لنا السلف ، بالنظر لبعض مواصفاته الخاصة ، التي سننوه بها فيما يلي ٠

١ ـ كاتب المذكرات

شهاب الدين ، أحمد بن محمد بن أحمد الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن طوق ، وُلد في ربيع الأول ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م وتوفي يوم الأحد ثالث أو رابع رمضان ٩١٥ هـ / ١٥٠٩م ٠ ذكر ذلك الغزّي في الترجمة الموجزة التي علقها له في (الكواكب السائرة : ١ / ١٢٦) ، حيث ترجم له بثلاثة أسطر ، واصفاً إياه بـ " الشيخ الإمام العالم الصالح المحدّث " ٠ وترجمة الغزّي هذه نقلها ، فيما يبدو ، ابن العماد الحنبلي في (شذرات الذهب : ٨ / ٦٨) ، لم يغادر منها سوى وصف المترجم له بـ " الصالح " ٠ ونخال أن تفسير هذه الملاحظة غير بعيد عمّا بين الرجلين من اختلاف في المذهب ٠

بالإضافة إلى ما قد عرفناه عن ابن طوق ممن ترجم له ، فإن مذكراته تزودنا بمعلومات جمّة عنه ٠ ونخلص من تضاعيف ما يتحدّث به هو عن نفسه ، إلى أنه كان فقيهاً شافعياً غير ذي شأن ، على علاقة متينة وشبه يوميّة بتقي الدين أبو بكر ابن قاضي عجلون (٨٤١ ـ ٩٢٨ هـ / ١٤٣٣ ـ ١٥٢١ م) أعلى فقهاء الشافعية شأناً في " دمشق " في زمانه ٠ ومع ذلك فإنه لم يُذكر في عداد تلاميذه الكثُر الذين ترجم لهم الغزّي في (الكواكب السائرة) ٠ وفي هذا دليل على أنه لم يكن معدوداً من جملة الفقهاء الرسميين ٠ وما ذاك ، فيما نأخذه من مذكراته ، إلا لأنه كان فلاحاً على هامش الفقهاء ، الذين كانوا بدورهم على هامش السلطة ٠ كانت أسرته قد تحوّلت من موطنها الأصلي في قرية " جرود " ، في " القلمون " غرب " دمشق " ، هي نفسها المعروفة اليوم بـ " جيرود " التي ظلّ يدعوها " بلادي " ، كما ورد غير مرّة في مذكراته ، ونزلت " دمشق " ٠ والظاهر أن أمه كانت دمشقيّة ، فخاله كان من سكنة " الصالحيّة " ، في حين أن جدّه لأبيه كان مقيماً في " جرود " ٠ أما هو فكان بيته بجوار " مسجد القصب " ، المعروف أيضاً بـ " جامع منجك " ٠ ويُعرف اليوم بـ" مسجد الأقصاب " ٠ إلى جنب حمّام كان يُعرف

بـ " حمّام برهان الدين " ٠

في " دمشق " ، فيما يبدو ، حصل ابن طوق على شيء من العلم ، بحيث تأهّل لمهنة الشهادة ٠ وكان الشاهد جزءاً من النظام القضائي المعمول به في زمانه ٠ وهو يّشبه إلى حد بعيد مُسجّل العقود أو الكاتب بالعدل اليوم ٠ لكن كان على الشاهد أن يُثبت ما سجّله أمام أحد القضاة لكي يكتسب الصفة الإجرائيّة النهائيّة ٠ وقد أثبت في مذكراته نصوصاً أمينة لعقود ممّا كان يسجّله ٠ وكان من جملة عمله شاهداً تنظيم عقود صوريّة لتغطية عمليات إقراض بالربا الفاحش ٠ بل أنه هو كان يُقرض بالربا بحيلة ٠ كما كان يتعاطى ما يُشبه عمل الخبير الزراعي ومسح الأراضي ٠ وتلك خبرة قد اكتسبها ، ولا ريب ، من منبته الفلاحي ٠ كما كان يستأجر أرضاً من مالكها ويزرعها لحسابه ٠ وقليلاً ما كان يُكلف بنساخة الكتب ٠ وما أدري كيف ذلك بالنظر إلى ما أعرفه وعانيت منه من رداءة خطه ٠ كما كان له إلى جنب داره بستان صغير ، يزرع فيه الرمان والقنبيط واللوز والسفرجل والورد ، ويُربّي فيه الدجاج بأعداد كبيرة ، ويبيع من كل ذلك للقضاة وكبار الفقهاء ، مستفيداً من صلاته بهم ، أو ساعياً إلى تعزيز تلك الصلات ٠

لكنه ، مع كل هذا السعي وتعدّد مصادر الرزق ، كان يشكو من فقر مُقيم ٠ فهو يوماً " في شدّة عظيمة من ضيق ذات اليد " (١٧٠ آ) وآخر " في حصر عظيم من ضيق اليد وتراكم أصحاب الديون " (١٥٤ ب) ٠ واضطر مرّة لأن يكتفي من القوت لمدّة أربعين يوماً بما ينتجه بستانه من القنبيط (١٣٢ ب) بل إنه في أيام ٢٠و ٢١ و ٢٢ شعبان ٩٠٢ هـ لم يجد ما يتبلغ به فسجّل في مذكراته " لم آكل اليوم شيئاً ٠ وكانت اليد ضيّقة جداً ٠ ويُوسّع الله " ٠

بيد أن الفقر والعوز لم يُزعزعا ابن القرية ، الذي ظلّ السيّد في أعماق ابن طوق ٠ بل ظلّ ذلك الإنسان الطيّب ، المُتمسّك بالأخلاق الشعبيّة ، الآتية من التعاليم الدينيّة ٠ ومن ذلك أنه رفض العمل للسّلطة متكلماً على الأوقاف ، أي مُمثلاً لها في نظر تلك الأوقاف ٠ خشية أن يُدخله ذلك العمل في تلك الدائرة المُهلكة ، من وجهة نظره ، في العمل للظالمين (٣١٨ ب) ٠ كما غضب أشدّ الغضب وندّد بابنه الأكبر ، حين نُمي إليه أنه في سبيله للحصول على وظيفة صغيرة في دار النيابة ٠ وبالفعل أفلح في صدّه (٢٢٠ آ) ٠ وكان مرّة في زيارة جاره الأمير قرقماس أمير آخور ، فحضر السّماط واضطر أن يُشارك الطاعمين ٠ فكتب ذلك في مذكراته ، ثم أتبعه بعبارات مؤثرة يستغفر فيها ربّه ممّا جنته يداه لأنه أكل طعاماً حراماً (٣٤٣ ب) ٠

كان الرجل مُجرّد فقيه صغير ، أنموذجاً صغيراً لمثقفي ذلك الزمان ٠ يحتلّ شريحة متواضعة جداً من ذلك الهامش الضيّق الذي تركه التصنيف الاجتماعي الحادّ ، المُحتلّ من قِبل الساسة ـ العسكر ، وعلى هامشهم فقهاء المذاهب ٠ وكان هو على هامش الفقهاء ٠ إذن ، فمن المُحقّق أنه لم يكن إماماً ، وإلا لما رأيناه على هامش الهامش ٠ كما أنه لم يكن عالماً ٠ وإطلاق هذين الوصفين عليه من الغزّي ، وتابعه عليه الحنبلي ، هو من السخاء المجاني ، الذي تحفل به كتب التراجم والطبقات ٠ خاصة حيث لا يُثير الوصف جدلاً ، لأن الشخصيّة نفسها أدنى من أن تكون موضع جدل ٠

الخلاصة ، كان ابن طوق أنموذجاً طريفاً للشخصيّة السيئة الاندماج ٠ يستقرّ على منتصف السُّلم ، يتجاذبه قطبان ، يتمثّل أولهما في منبته الفلاحي وما أودعه فيه من أخلاق صارمة ، والثاني في طموحه إلى اختراق سقف الطبقة التي جاء منها ، والالتحاق بأحد قطبي النفوذ ٠ وذلك طموح مشروع وغير نادر ٠ لكن شخصيّة ابن طوق ، وبالخصوص تركيبته الأخلاقيّة الصارمة ، كانت أبعد ما يكون عن صعود السُّلم إلى منتهاه ٠

٢ ـ المُذكّرات

ما وصلنا من مذكّرات ابن طوق يغطّي ما بين السنتين ٨٨٥ و ٩٠٨ هـ / ١٤٨٠ ـ ١٥٠٢ م ، أي زهاء الأربع وعشرين سنة ملأها كاتبها بمادة بالغة التنوّع ، استقاها بدأ ب مدهش من عمله ، وقد عرفناه ، وقد سجّل نصوصاً تبدو أمينة لمجموعة جيّدة من العقود التي صاغها بلغته • وهذه تشكّل بنفسها ثروة من المعلومات التي تتناول نظام العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في زمانه • كما يمكن أن تكون موضوعاً للدراسة بوصفها نماذج لغويّة نادرة • ومن مشاهداته الشخصية ، على كل ما يخطر بالبال من صنوف نشاطات الناس • بحيث تقدّم لنا لوحة بانورامية عريضة لا مثيل لها لسعي الناس في مختلف ميادين الحياة • بالإضافة إلى ما وصل إلى سمعه من أخبار • وجدير بالذكر أنه في مصدره الأخير حرص دائماً على ذكر مصدر الخبر ، وكأنه يريد توثيقه • وهو في هذا متأثر ، ولا ريب ، بنهج المحدّثين • مع حرص خاص على تتبّع عثرات السلطة السياسية ، وتسجيل ضروب الاعتراض عليها من جانب الناس ، حين يصل ضيقهم بمظالمها إلى الحدّ الذي لا يطيقون احتماله ، أو عندما يجدون أن الوضع ا لسياسي ملائم للشكوى والتنديد العلنيين •إذ ذاك نراه يستنزل اللعنات على أولئك الظالمين دونما خشية ، وهو في أقصى حالات الغضب • وهذا أمر نادر جداً في الكتابة التاريخية التقليديّة • كما أن السلطة الدينية ، المتمثلة آنذاك في القضاء بمذاهبه الأربعة ، لم تنجُ من نقده الحاد لسلوك بعض القضاة المُرتشين ، أو الذين يكيّفون أحكامهم طبقاً لمصالحهم • وحتى شيخه الذي ظلّ مخلصاً له طيلة حياته ، أعني تقي الدين ا بن قاضي عجلون ، نال نصيبه من النقد اللاذع ، إذا صدر منه ما هو في نظر ابن طوق مما لا يتناسب مع ما هو متوقع من عالم الدين النقي • كل هذا مع إشارة ضرورية إلى عنايته التامة بتسجيل أحوال الطقس يومياً تقريباً • وما من ريب أنه ورث ذلك من أصله الفلاحي ، حيث للطقس أهميته المطلقة بالنسبة للإنتاج الزراعي • وقد تناقشت مع أحد المختصّين في أهميّة هذه التسجيلات اليومية التي تغطّي مدّة ربع قرن تقريباً ، باعتبارها وثيقة مناخيّة نادرة ، فهوّن من شأنها • ومع ذلك فإنني أحب أن أعتقد أنها لا تخلو من قيمة ، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار مقارنتها بتسجيلات حاليّة ، حيث من الممكن اكتشاف تحوّلات مناخيّة • في ظل الاهتمام العالمي بالبيئة ومتغيّراتها •

لكن الذي حيّرني دائماً هو : لماذا ، على كل حال ، بذل ذلك الجهد الخارق في كتابة تلك المذكّرات سنة بعد سنة ، وربما إلى حين أو إلى قُبيل وفاته ، التي عرفنا أنها حصلت بتاريخ الثالث أو الرابع من شهر رمضان سنة ٩١٥ هـ• فضلاً عمّا ضاع منها قبل السنة ٨٨٥ هـ ، أي السنة التي قلنا أنها بداية ما وصلنا من المذكّرات ؟ أي أنه استمر في عمله الشّاق ما يناهز الثلث قرن ، إن لم يزِد •

نحن نعرف أن المؤرّخ الإسلامي السياسي التقليدي يكون غالباً جداً ممثلاً للسُلطة ، يُزوّق صورتها ، ويُغطّي أخطاءها • إذن ، فحافزه إلى العمل يكمن في مقولة أن مالك السُلطة هو مالك التاريخ • وفي هذا تبرير وتسويغ كافٍ من وجهة نظره • ومثاله الأبرز علي بن محمد الشيباني ، المعروف بابن الأثير • أمّا المؤرخ الديني ، فهو يعمل على تمجيد مُعتقده • وهذا أيضاً حافز له ما يفوق الحصر من الأمثال ، من كُتّاب السِّيَر المذهبية ، من مثل (طبقات الشافعية) ، وهو عنوان لثلاثة كُتُب معروفة للسّبكي والأسنوي وابن هداية الله ، و(أمل الآمل) للحر العاملي• إلى الذين اعتنوا بتسجيل ووصف المعالم الدينيّة ، مثل النعيمي في كتابه الشهير (الدارس في تاريخ المدارس) • وهناك أنماط أُخرى ولا ريب ، لكنني لا أجد سبباً للتفصيل في هذا أكثر ممّا تقتضيه هذه الملاحظة •

أمّا كاتب المُذكرات الشخصيّة فإن حافزه الرئيس للكتابة هو شعوره بالأهميّة • أنه شخص مُهمّ ، وأن سيرته وأعماله ستكون موضوع تساؤل أو مساءلة في يوم من الأيام • لذلك فهو يعمل على تسجيلها بنفسه ، وكأنه يعمل على أن يسبق غيره في هذا • ولذلك فإننا نجدها غالباً محشوّة بالمبرّرات والمسوّغات •

وفق هذه النمذجة ، فإن مذكرات ابن طوق عمل هجين ، أخذ من هذا بطرف ، وأخذ من ذاك بطرف • فهو يفتتح كل سنة بذكر كبار رجال السُّلطة ، من الخليفة والسلطان وكبار الأمراء وكافل " الشام " وقُضاة المذاهب في " القاهرة " و " دمشق " • وهذا تقليد كان معمولاً به عند مؤرخي ذلك الأوان • الأمر الذي يمكن أن نفهم منه أنه كان يحاول أمراً يتشبّه فيه بالمؤرخين •ولكنه ما إن يغادر الفاتحة حتى يتحوّل عمله تحوّلاً جذرياً باتجاه المذكرات الشخصيّة • فالمادة تُقسم بحسب الأيام ، وليس السنوات والأشهر • عنوانها أبداً اليوم وتاريخه ثم وصفه بـ " المبارك " • وحتى عندما لا يجد ما يكتبه تحت عنوان يوم من الأيام ، فإنه يضع بإصرار عنوانه المعتاد ، دون أن يكون عنده ما يقوله عليه • حتى لو اقتضى الأمر أن يفعل ذلك أياماً متتاليات • وغالباً ما يترك ما بعده بياضاً ، وقد يقول : " لم يكن فيه ما يُكتب " • المهم أنه هو ومعلوماته وأعماله وشبكة علاقاته ووجهة نظره في الأحداث والرجال هي الحاضر الدائم • بل إنه يُبالغ في هذه الشخصانيّة إلى درجة أن يُسجّل مثلاً : " لبست القميص الجديد " و " قلعتُ الفروة " و " باض الحمام " •

من التمحّل أن نقول ، أن امرءاً على ما عرفناه من ثقافة متوسطة ومنبت بسيط وسذاجة ملحوظة ، كان يُدير في ذهنه خطّة واضحة ، وهو يخطّ يوميّاته يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة • ولكن هذه الملاحظة تأخذ عندنا معنى آخر إذ نلحظ أنه مبدع هذا الفن• فنحن لا نعرف أحداً قبله شغل نفسه بمثل هذا • ولكن علينا أن نلاحظ أيضاً أن سابقة ابن طوق لم تجد مَن يُثنّي عليها • وُلدت فريدة وبقيت فريدة • فكأنها سحابة صيف ، تجمّعت ثم تلاشت • الأمر الذي يؤشّر إلى السيطرة المفهوميّة المطلقة للنهج التقليدي السلطوي في الكتابة التاريخيّة • ومع ذلك فإننا نجد أن من المؤرخين المعاصرين له مَن اتخذ من مذكراته مصدراً للمعلومات • وهذا اعتراف عملي واضح بقيمة بعضها على الأقل • حتى من وجهة نظر أرباب ذلك القبيل من المؤرخين •

أعني بهذه الملاحظة شمس الدين محمد بن علي ابن طولون الصالحي ، الذي وُلد سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م ، وتوفي سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م • أي أنه كان في الخامسة والثلاثين سنة وفاة ابن طوق • وهو مؤرّخ دمشقي معروف • صبّ جهده على تاريخ مدينته •وترك مجموعة كبيرة من المصنفات في هذا الباب ، لعلّ من أكثرها شُهرة وأوسعها تداولاً كتابه المنشور (مفاكهة الخلان في حوادث الزمان) الذي أرّخ ما وصلنا منه لأحداث وأعلام السنوات ٨٨٤ ـ ٩٢٦ هـ / ١٤٧٦ ـ ١٥١٩ م ، أي أنه يتقاطع مع مادة المذكرات تقاطعاً كاملاً • وهو أنموذجنا في مراجعة نقديّة لاستفادة مؤرّخ سلطوي من مؤرخ إنساني •

من الغني عن البيان ، أن مادة (مفاكهة الخلان) الأولى تتعلق بزمن كان فيه مصنفه أدنى من عمر الملاحظة والتسجيل • ولذلك فإنه لجأ إلى الأخذ عمّن سبقه إلى الاهتمام بما يهتم به في كتابه • وليس في هذا ما يُعاب أو يؤاخذ عليه • ولكننا رأينا أن مصدريه الأساسين في هذا هما مذكّرات ابن طوق ، و (حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران) لشهاب الدين أحمد أحمد بن محمد الحمصي المتوفى سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧ م • ولقد لاحظنا أن اقتباساته الطويلة والحرفيّة أحياناً عن ابن طوق هي أكثر بكثير ممّا أخذه عن الحمصي ، ومن وجهة نظرنا فإنها أكثر أهميّة • ولكنه في الوقت الذي أسند فيه ما أخذه عن هذا ، فإنه لم يُسند عن ابن طوق إلا مرّة واحدة • فكأنه استنكف عن ذلك ، ورغب عن أن يُسجّل على نفسه أنه يأخذ عن ذلك

الفلاح القادم من قرية • ومن ذلك أنه تجاهل خبر وفاته فيما علقه من أخبار السنة ٩١٥ هـ • علماً بأن أخبار هذه السنة قد وصلتنا في كتابه كاملة • مما ينفي احتمال سقوطها من المطبوعة • أمّا الحمصي فقد كان فقيهاً رسمياً وخطيباً في " الجامع الأموي " ، ولذلك فإنه لم يجد غضاضة في النقل عنه نقلاً مشفوعاً دائماً بالإسناد الصريح •

ليس هذا فقط ، بل إنه ، وهو المؤرّخ المسكون بثقافة سُلطويّة حادّة ، فرضت عليه تقديم رجال السلطة دائماً على نحو يليق بمقامها ، أخضع ما ا قتبسه عن المذكرات إلى هذا الاعتبار • وهذه ملاحظة تستحق بحثاً مستقلاً • لكننا نشير بسرعة إلى مثالين ، هما خبر مجئ الأمراء المماليك إلى بيت القاضي الشافعي شهاب الدين ابن الفرفور وأخذه عنوة إلى بيت الكافل قانصوه اليحياوي (التعليق / ١٢٩٥) • وقد تجاهل ابن طولون هذا الخبر تماماً • والثاني خبر إمساك الحاجب الكبير في " الشام " أحد كبار تجّار المدينة ، وضربه ضرباً مبرحاً ظلماً وعدواناً (نفسه / ١٣٢٨) ، وقد صاغه ابن طولون بطريقة تسوّغ للحاجب ما ارتكب من ظلم ، بالقول أنه " شمّ منه رائحة خمر ، فضربه ضرباً مبرحاً " (مفاكهة : ١ / ١٦٢) •

* * *

إذ نُذكّر بما قلناه قبل قليل ، من نفي أن يكون ابن طوق كانت في ذهنه خطّة واضحة ، وهو يخطّ مذكراته سنة بعد سنة ، نُضيف الآن أن الفضل في أفضل ما تقدّمه لنا تلك المذكرات يرجع إلى ثقافته المتوسّطة وسذاجته • فمن شبه المؤكّد أنه لو كان من منبت مديني وثقافة عالية لما كان في وسعه أن ينجو من أ سار الاعتبارات السياسيّة والثقافيّة الطاغية • ولم يكن ليفكّر بأن يكتب بتلك البساطة والصدق والشمول •

وسواء كان الرجل كان يكتب عن وعي على قيمة ريادته أم لا • وسواء كان قادراً أم عاجزاً عن أن يضع لمذكراته الفذلكة التي تسوّغها ، فإنها بنفسها ، وبصرف النظر عن التنظير المفقود ، تطرح عدّة قضايا •

الأولى : أنه ا بتكر منهجه الخاص • وقد قلنا فيه ما يتسع له المقام •

الثانية : أنه يطرح ضمناً مقولة أن الثقافة ليست بالضرورة ثقافة النخبة وحدها •

الثالثة : أن اتساع الثقافة لتشمل صنوف الابداعات الشعبيّة في هذا الميدان أو ذاك ليس ينتقص من قيمة الثقافة النخبويّة • هاهنا مُتسع للجميع •